

بسم الله الرحمن الرحيم

///مادة علوم القرآن///

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه...

أما بعد:

فهذه مادة "علوم القرآن". قرّبها للأذهان، الدكتور: "صالح زارة" لطلبة الفصل الأول من شعبة الدراسات الإسلامية / جامعة محمد الخامس –أكدال– الرباط. موسم 2014 / 2015 م

** المحاور:

1) تمهيد. ويشتمل على: أ– تعريف علوم القرآن. ب– أسماء القرآن وأوصافه. ج– طبيعة القرآن وخصائصه. د– الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والحديث النبوي.

2) الوحي القرآني.

3) تنزلات القرآن وأسباب النزول.

4) جمع القرآن.

5) علم المكي والمدني.

** المراجع:

– "مباحث في علوم القرآن" لمناع القطان. (وهو الكتاب المقرر للمادة).

– "مناهل العرفان في علوم القرآن" لمحمد عبد العظيم الزُّرقاني.

** المصادر:

– "البرهان في علوم القرآن" لبدر الدين الزركشي.

– "الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السِّيوطي.

وهذا موقع إلكتروني قد نصح به الأستاذُ www.tafsir.net



أعده الطالب: عبد الرحمن بن عكراش

أولا: تمهيد:

أ– تعريف "علوم القرآن":

"العلم" لغة يطلق ويراد به معان منها: الفهم والمعرفة واليقين.

"العلم" اصطلاحا: جملة من المسائل المضبوطة بجهة واحدة.

"القرآن" لغة: مصدر مرادف للقراءة، وهو من قرأ يقرأ قراءةً وقرآنا، فنُقل من معناه المصدري إلى اسم المفعول. ودليل ذلك قوله تعالى: ((إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)) فـ "قُرْآنَهُ" –الأولى– بمعنى حِفْظَه. و "قُرْآنَهُ" –الثانية– بمعنى قراءته، وهي المقصودة هنا.

"القرآن" اصطلاحا: **كلام الله المعجز المنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم– المكتوب في المصاحف المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته.**

'كلام الله' يخرج بهذا القيد كلام غير الله من الإنس والجن والملائكة.

'المنزل' يخرج بهذا القيد كلام الله الذي استأثر به.

'على محمد' يخرج بهذا القيد ما أُنزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

' المكتوب في المصاحف المنقول عنه بالتواتر' يخرج بهذا القيد جميع ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير المتواترة، سواء أكانت مشهورة أم آحادا فإن شيئا من ذلك لا يسمى قرآنا ولا يأخذ حكمَه.

وخرجت الأحاديث القدسية إذا تواترت بقولهم 'المتعبد بتلاوته'.

– تعريف علوم القرآن بالمعنى الإضافي:

أولا: قال العلماء لا يمكن لأي أحد أن يجزم أن علوم القرن كذا عددها، لأن هاته العلوم لما أضيفت إلى القرآن الكريم اكتسبت نوعا من عدم الحصر، فهي كثيرة، لأن كلام الله عز وجل وكلماته لا تنفد. قال تعالى: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا". وقال: "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"

ويمكن أن نعرف 'علوم القرآن' بأنه "مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخه ودفع الشبه عنه ونحو ذلك."

ب– أسماء القرآن وأوصافه:

من العلماء من رأى أن القرآن ليس له إلا اسم واحد وهو "القرآن" وباقي الأسماء هي أوصاف له.

ومنهم من رأى أن القرآن له أربعة أسماء وأربعة أوصاف. فمن الأسماء:

"القرآن". {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}.

و"الكتاب". {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ}.

و"الفرقان". {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}.

و"الذكر".. {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}.

ومن الأوصاف:

"موعظة" و "شفاء" و "هدى" و "رحمة". وهي مجموعة في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}.

ومن أوصافه أيضا: "البرهان" و "النور". قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا}. و"بشير" و"نذير". قال تعالى: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ, بَشِيرًا وَنَذِيرًا}.

ج- طبيعة القرآن وخصائصه:

من خصائص القرآن الكريم:

- الربانية والإلهية. وعليه فإنه محفوظ من التحريف والضياع ، والزيادة والنقصان ، وذلك لأن الله تعالى تولّى حفظه بنفسه فقال تعالى : {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}

- أن القرآن شامل لكل مناحي الحياة.

- أن القرآن صالح لكل زمان ومكان.

- أنه حاكم على كل تصرفات الإنسان.

- أنه خاتم الكتب السماوية والمهيمن عليها.

وفي هذا الصدد يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه إعلام الموقعين: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله "صلى الله عليه وسلم" أتم دلالة وأصدقها».

أما عن طبيعة القرآن فيمكن أن نأخذ كلام "السيد قطب" في كتابه "ظلال القرآن" ويكون كافيا لنا في هذه الباب، يقول رحمه الله: "إن القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ذاته. الكون كتاب الله المنظور. والقرآن كتاب الله المقروء. وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه المبدع كما أن كليهما كائن ليعمل.. والكون بنواميسه ما زال يتحرك ويؤدي دوره الذي قدره له بارئه. الشمس ما زالت تجري في فلكها وتؤدي دورها، والقمر والأرض، وسائر النجوم والكواكب لا يمنعها تطاول الزمان من أداء دورها، وجدة هذا الدور في المحيط الكوني..

والقرآن كذلك أدى دوره للبشرية، وما يزال هو هو. فالإنسان ما يزال هو هو كذلك. ما يزال هو هو في حقيقته وفي أصل فطرته. وهذا القرآن هو خطاب الله لهذا الإنسان- فيمن خاطبهم الله به. خطاب لا يتغير، لأن الإنسان ذاته لم يتبدل خلقا آخر، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت من حوله، ومهما يكن هو قد تأثر وأثر في هذه الظروف والملابسات.. والقرآن يخاطبه في أصل فطرته وفي أصل حقيقته التي لا تبديل فيها ولا تغيير ويملك أن يوجه حياته اليوم وغدا لأنه معد لهذا، بما أنه خطاب الله الأخير وبما أن طبيعته كطبيعة هذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل. وإذا كان من المضحك أن يقول قائل عن الشمس مثلا: هذا نجم قديم «رجعي؟» يحسن أن يستبدل به نجم جديد «تقدمي!» أو أن هذا «الإنسان» مخلوق قديم



«رجعي» يحسن أن يستبدل به كائن آخر «تقدمي» لعمارة هذه الأرض!!! إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك، فأولى أن يكون هذا هو الشأن في القرآن. خطاب الله الأخير للإنسان".

د- الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والحديث النبوي:

قبل ذكر الفرق لا بد من تعريف كلٍّ من الحديث القدسي والحديث النبوي. -وقد تقدم تعريف القرآن-

فالحديث القدسي هو: "ما كان لفظه من النبي صلى الله عليه وسلم، ومعناه من الله تعالى، أو هو ما أخبر الله نبيه بالإلهام أو المنام، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك المعنى بعبارة من نفسه ."

والحديث النبوي: هو "ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ونحوها من الأوصاف الخِلقية أو خُلقية".

فيكون الفرق بين القرآن والحديث القدسي:

1- أن القرآن الكريم كلام الله أَوْحَى به إلى رسول الله بلفظه، وتحدى به العرب، والحديث القدسي لم يقع به التحدي ولا الإعجاز.

2- القرآن الكريم لا يُنْسَب إلا إلى الله تعالى، فيقال: قال الله تعالى. والحديث القدسي قد يُرْوَى مضافًا إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى، أو: يقول الله تعالى، وقد يُرْوَى مضافًا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنه عليه الصلاة والسلام هو المخْبِرُ به عن الله، فيقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه عز وجل.

3- القرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر، فهو قطعي الثبوت، والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد، فهي ظنية الثبوت. وقد يكون الحديث القدسي صحيحًا، وقد يكون حسنًا، وقد يكون ضعيفًا.

4- القرآن الكريم من عند الله لفظًا ومعنًى، فهو وحي باللفظ والمعنى. والحديث القدسي معناه من عند الله، ولفظه من عند الرسول -صلى الله عليه وسلم- على الصحيح فهو وحي بالمعنى دون اللفظ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدِّثين.

5- القرآن الكريم مُتَعَبَّدٌ بتلاوته، فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة، وقراءته عبادة يُثيب الله عليها، والحديث القدسي لا يجزئ في الصلاة، ويثيب الله على قراءته ثوابًا عامًّا.

أما الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي:

فالحديث النبوي قسمان:

"قسم توقيفي"وهو الذي تلقى الرسول -صلى الله عليه وسلم- مضمونه من الوحي فبيَّنه للناس بكلامه، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوبًا إلى الله فإنه -من حيث هو كلام- حَرِي بأن يُنسب إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأن الكلام إنما يُنسب إلى قائله وإن كان ما فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره.

و"قسم توفيقي" وهو الذي استنبطه الرسول -صلى الله عليه وسلم- من فهمه للقرآن، لأنه مبيِّن له، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد. وهذا القسم الاستنباطي الاجتهادي يقره الوحي إذا كان صوابًا، وإذا وقع فيه خطأ جزئي نزل الوحي بما فيه الصواب وليس هذا القسم كلام الله قطعًا.

ويتبين من ذلك: أن الأحاديث النبوية بقسميها: التوقيفي، والتوفيقي الاجتهادي الذي أقره الوحي، يمكن أن يقال فيها إن مردها جميعًا بجملتها إلى الوحي، وهذا معنى قوله تعالى في رسولنا, صلى الله عليه وسلم: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى, إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}.

والحديث القدسي معناه من عند الله عز وجل، يُلْقَى إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- بكيفية من كيفيات الوحي -لا على التعيين- أما ألفاظه فمن عند الرسول -صلى الله عليه وسلم- على الراجح ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن، ولوقع التحدي بأسلوبه والتعبد بتلاوته.

ويرد على هذا شبهتان!

الشبهة الأولى: أن الحديث النبوي وحي بالمعنى كذلك، واللفظ من الرسول -صلى الله عليه وسلم- فلماذا لا نسميه قدسيًّا أيضًا؟

والجواب: أننا نقطع في الحديث القدسي بنزول معناه من عند الله لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله بقوله صلى الله عليه وسلم: "قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى" ولذا سميناه قدسيًّا، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لم يرد فيها مثل هذا النص، ويجوز في كل واحد منها أن يكون مضمونه معلَّمًا بالوحي "أي توقيفيًّا" وأن يكون مستنبطًا بالاجتهاد "أي توفيقيًّا" ولذا سمينا الكل نبويًّا وقوفًا بالتسمية عند الحد المقطوع به، ولو كان لدينا ما يميز الوحي التوقيفي لسميناه قدسيًّا كذلك.

الشبهة الثانية: أنه إذا كان لفظ الحديث القدسي من الرسول -صلى الله عليه وسلم- فما وجه نسبته إلى الله بقوله صلى الله عليه وسلم: "قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى".

والجواب: أن هذا سائغ في العربية، حيث ينسب الكلام باعتبار مضمونه لا باعتبار ألفاظه، فأنت تقول حينما تنثر بيتًا من الشعر: يقول الشاعر كذا، وحينما تحكي ما سمعته من شخص: يقول فلان كذا.

ثانيا: الوحي القرآني:

أ- معنى الوحي لغة:

يقال: وَحَيْتُ إليه وأوحيت: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره. و"الوحي" مصدر، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين، هما: الخفاء والسرعة.

وتطلق كلمة "الوحي" في اللغة ويراد بها:

- الإلهام الفطري للإنسان كالوحي إلى أم موسى، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ}.

- الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}.

- الإشارة الخفية السريعة على سبيل الرمز، قال تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}.

- وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}. وقال تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}.

- ما يوحيه الله تعالى إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا}.

ب- معنى الوحي شرعا:

"أن يُعْلِمَ الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر".

أو نقول: هو إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغوه عنه.

وقال بعضهم: هو تكليم الله تعالى نبيَّه محمدا صلى الله عليه وسلم.

ج- أنواع الوحي:

قال الله تعالى: { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}.
روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا



قَالَ، وأحيانًا يتمثل لي المَلَكُ رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول". ». قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا.

دلّت الآية الجامعة على كيفيات الوحي وأنها ثلاث لا رابع لها، وسماها العلماء مراتب الوحي، وهي:

1 – «وحيا» وهو أن يلقي الله ما يريد إلقاءه إلى النبي مباشرة بطريق خفي سريع دون واسطة. فيعرف صلى الله عليه وسلم أنه من الله. وهذا هو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: " أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال..." ومعظم القرآن هو من هذا القسم الأول.

2 – «مِنْ وَراءِ حِجابٍ» أي أن يكلم الله النبي، من وراء حجاب تكليما. كما كلم الله موسى– عليه السّلام. وحين طلب الرؤية لم يجب إليها، ولم يطق تجلي الله على الجبل «وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ: سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ».

3 – «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» وهو المَلَك أي جبريل «فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ» بالطرق التي وردت عن رسول الله– صلّى الله عليه وسلّم كما سيأتي بيانه. وهذا هو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: "وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ".

وقد بحث العلماء في هذه المراتب– ومرادهم كيفيات الوحي– واستقصوا أحوالها فيما ورد من وصف الوحي من الكتاب والسنّة، وأوصلوها إلى سبع مراتب ينقسم إليه الوحي ويقع بها، ومنهم من جعلها ثماني مراتب، وترجع كلها إلى المراتب الأساسية التي ذكرتها الآية، وتندرج في ضمنها ولا تتجاوز حدها، كما يتضح من هذا البيان الذي يشرحها:

المرتبة الأولى:

الرؤيا الصادقة، وذلك كما ورد في حديث عائشة:

«أول ما بدئ به رسول الله صلّى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم»، والوحي في هذه المرتبة إما أن يكون بإلقاء الله أو بواسطة الملك فهو داخل في الآية لا يخرج عنها.

المرتبة الثانية:

أن يأتيه الملك فيلقي في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما أخرج الشهاب والحاكم عن ابن مسعود أنه صلّى الله عليه وسلم قال: «إن روح القدس نفث في روعي: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ... ».

المرتبة الثالثة:

أن يتمثّل له الملك رجلا فيخاطبه فيعي عنه ما يقول:

كما في الحديث المشهور من سؤال جبريل النبي صلّى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة. وهو متفق عليه. وهذه الحالة لم ينزل بها القرآن حتى لا يقال إنما يعلمه بشر.

المرتبة الرابعة:

أن يأتيه الملك على حاله الملكية ويوحي إليه، وفي هذه المرتبة يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس، وكان ذلك أشد الوحي عليه صلّى الله عليه وسلم. قال ابن حجر في فتح الباري: " وَالْحِكْمَةُ فِي تَقَدُّمِهِ –أي صلصلة الجرس– أَنْ يَقْرَعَ سَمْعَهُ الْوَحْيُ فَلَا يَبْقَى فِيهِ مَكَانٌ لِغَيْرِهِ".

المرتبة الخامسة:

أن يأتيه الملك جبريل ويظهر له في صورته الملكية العظيمة التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه. وهذا وقع له صلّى الله عليه وسلم مرتين: إحداهما في الأرض، والثانية: في السماء ليلة المعراج عند سدرة المنتهى، كما قال تعالى في سورة النجم: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى. ما زاغَ الْبَصَرُ وما طَغى. لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى.

وهذه المراتب الأربعة التي بعد الأولى كلها صور لمرتبة واحدة لا تخرج عنها، ذكرها القرآن في قوله تعالى: أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ.

المرتبة السادسة:



كلام الله تعالى للنبي من وراء حجاب، كما وقع للنبي صلّى الله عليه وسلم ليلة المعراج بعد أن استقرت فريضة الصلوات على الخمس فنودي: أحكمت فريضتي وخففت على عبادي، وكما وقع لموسى عليه السلام: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً.

المرتبة السابعة:

كلام الله تعالى للنبي وحيا بلا واسطة ملك ولا حجاب: كما أوحاه إلى النبي صلّى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهو فوق السموات من فرض الصلوات ومضاعفة الحسنات الحسنة بعشر أمثالها، وغير ذلك، وهي مرتبة داخلة في قوله: أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أي إعلاما خفيا.

لكن بعضهم استشكل ما وردت به الأحاديث في هذه المرتبة وقال به أكثر العلماء أنه صلّى الله عليه وسلم رأى ربه عزّ وجلّ ليلة المعراج كيف يتفق مع قوله: {وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ} وليس هاهنا حجاب؟

إلا أن هذا الإشكال في الحقيقة غير وارد هنا إذا ما علمنا أن الوحي الإلهي في هذه المرتبة لا يشبه خطاب الخلق، بل هو داخل في قوله إلا وحيا، لأن الوحي إعلام في خفاء، وقد أبان الإمام المفسر البيضاوي عن ذلك في تفسيره لهذه الآية وهو يفسر إِلَّا وَحْياً: «كلاما خفيا يدرك بسرعة، لأنه تمثيل، ليس في ذاته مركبا من حروف مقطعة يتوقف على تموجات متعاقبة»، فأزاح بذلك شبهة خروج هذه المرتبة عن حد الآية الكريمة.

وقد ذكر الإمام السيد قطب كلاما نفيسا عند تفسير هذه الآية فقال –رحمه الله: "وبعد فإنه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحي أو حديث، لأتأمل هذا الاتصال إلا أحسست له رجفة في أوصالي.. كيف؟ كيف يكون هذا الاتصال بين الذات الأزلية الأبدية التي ليس لها حيز في المكان ولا حيز في الزمان، المحيطة بكل شيء، والتي ليس كمثلها شيء. كيف يكون هذا الاتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيزة في المكان والزمان، محدودة بحدود المخلوقات، من أبناء الفناء؟! ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معاني وكلمات وعبارات؟

وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلي الأبدي الذي لا حيز له ولا حدود؟ ولا شكل له معهود؟

وكيف؟ وكيف؟ ..

ولكني أعود فأقول: وما لك تسأل عن كيف؟ وأنت لا تملك أن تتصور إلا في حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية؟! لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت في صورة. وصار لها وجود هو الذي تملك أن تدركه من وجود".

د– الأدلة على صدق الوحي القرآني:

كل ما عرضه وكتبه المستشرقون في هذا الباب من افتراءات وكذب هو نسبة القرآن إلى محمد –صلى الله عليه وسلم. حتى قال أحدهم: "أما وإن محمدا هو المخترعَ للقرآن الكريم؛ فهذا أمر لا يقبل الشك قطعا". وكل ما ادعاه المستشرقون في هذا الباب هو عارٍ من الأدلة والبراهين مطلقا.

وإذا نظرنا إلى القرآن في حياد وموضوعية فسوف نستبعد تماما أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام هو مؤلفه، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

1 – مقارنة المعارف القرآنية والمعارف الموجودة زمن محمد صلى الله عليه وسلم. فإذا أخذنا لمحات العلم في القرآن ومعارفه وعجائب الآيات الكونية التي أتت بالأسرار والخفايا التي لم تكتشف إلا في عصرنا، وقارناها بمعارف العصر البدائي العادي جدا زمن محمد –صلى الله عليه وسلم– الذي لم يكن يُعرف فيه إلا الشعر والنثر والشيء القليل من الطب نجد التباين الواضح، الذي يحيلنا على أن القرآن ليس من تأليف محمد. من أمثلة ذلك: "كروية الأرض" فقد جاءت الآيات الصريحة التي تستخدم لفظ التكوير لتصف انزلاق الليل والنهار كنصفي كرة: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ }. ثم الآية التي تصف دحو الأرض . { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا }. ودحا هي الكلمة الوحيدة في القاموس التي تعني البسط والتكوير معاً .. والأرض كما هو معلوم مبسوطة في الظاهر ومكورة في الحقيقة ، بل هي أشبه بالدحية " البيضة " في تكويرها.. ثم نقرأ إشارة أخرى صريحة عن أن الجبال تسبح في الفضاء ، وبالتالي فالأرض كلها تسبح بجبالها حيث هي والجبال كتلة واحدة: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } فالجبال التي تبدو جامدة ساكنة هي في الواقع سابحة في الفضاء .. وتشبيه الجبال بالسحب فيه لمحة أخرى عن التكوين الهش للمادة .. التي نعرف الآن أنها مؤلفة من ذرّات ، كما أن السحب مؤلفة من قطيرات. فكل هذه لمحات كاشفة قاطعة عن حقائق مذهلة وهي حقائق لم تكن تخطر على بال عاقل أو مجنون في ذلك العصر البائد الذي نزل فيه القرآن. .

قال مالك بن نبي في كتابه "الظاهرة القرآنية: "وللقران الكريم جولات في عالم النفس، وفي ميدان الأخلاق وفي تاريخ الحضارة وفي مجاهيل من عوالم قريبة وبعيدة لم يكن في مقدور إنسان كائنا من كان أن يتخطى عتبتها في ماضي الزمان وحاضره على حد سواء".

2- الإعجاز القرآني بأنواعه الأربعة: الأدبي والغيبي والتشريعي والعلمي. القرآن تحدى المنكرين ممن زعموا أن القرآن من تأليف محمد. فقال: {قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}. استعينوا بالجن والملائكة وعباقرة الإنس وأتوا بسورة من مثله ومازال التحدى قائما ولم يأت أحد بشيء... إلا ببعض عبارات مسجوعة ساذجة سموها "سورة من مثله"... أتى بها أناس يعتقدون أن القرآن مجرد كلام مسجوع.. و لكن سورة من مثله.. أي بها نفس الإعجاز البلاغي و العلمي، فلم تقع أبدا ولن تقع..

وتحدى القرآن أيضا بالإعجاز الغيبي، فهو يخبرك عن ماض لم يؤرخ ويتنبؤ بمستقبل لم يأت .. وقد صدقت نبوءات القرآن المتعددة: عن انتصار الروم بعد هزيمتهم : { غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ } و " بضع " في اللغة هي ما بين ثلاث وتسع .. وقد جاء انتصار الروم بعد سنين . وعن انتصار بدر: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} وعن رؤيا دخول مكة: { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ }. وقد كان . وما زلت في القرآن نبوءات تتحقق أمام أعيننا.

3- أُمِّيَّة محمد صلى الله عليه وسلم: إنه عليه الصلاة والسلام قد نشأ أميًّا وعاش أميًّا، في أمة أمية لم يُعرف فيها أحد يحمل وسام العلم والتعليم، وهذا واقع يشهد به التاريخ، ولا مرية فيه. أما أن يكون له معلم من غير قومه فإن الباحث لا يستطيع أن يقع في التاريخ على كلمة واحدة تشهد بأنه لقي أحدًا من العلماء حدثه عن الدين قبل إعلان نبوته. حقيقة إنه رأى في طفولته "بحيرى الراهب" في سوق بصرى بالشام، ولقي في مكة "ورقة بن نوفل" إثر مجيء الوحي، ولقي بعد الهجرة علماء من اليهود والنصارى، لكن المقطوع به أنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء شيئًا من الأحاديث قبل نبوته، أما بعد النبوة، فقد كانوا يسألونه مجادلين فيستفيدون منه ويأخذون عنه، ولو كان محمد -صلى الله عليه وسلم- أخذ شيئًا عن واحد منهم لما سكت التاريخ عنه، لأنه ليس من الهنات الهينات التي يتغاضى عنها الناس، لا سيما الذين يقفون للإسلام بالمرصاد، والكلمات التي ذكرها التاريخ عن راهب الشام أو ورقة بن نوفل كانت بشارة بنبوته عليه الصلاة والسلام أو اعترافًا بها.

وإذا افترضنا جدلا أنه كان له معلم: فما اسم هذا المعلم؟ وعندئذ نرى الجواب المتهافت المتداعي في "حدَّاد الرومي" ينسبون إليه ذلك، فكيف يستساغ عقلًا أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه مكة عالماً متفرغًا لدراسة الكتب، بل عرفته حدَّادًا منهمكًا في مطرقته وسندانه، عامي الفؤاد، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلى العرب: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}. ولقد كان العرب أحرص الناس على دفع هذا القرآن إمعانًا في خصومة محمد -صلى الله عليه وسلم- ولكنهم عجزوا ووجدوا السبل أمامهم مغلقة, وباءت كل محاولاتهم بالفشل, فما للملحدين اليوم -وقد مضى أربعة عشر قرنًا على ذلك- يبحثون في قمامات التاريخ ملتمسين سبيلًا من تلك السبل الفاشلة نفسها؟! وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر إنساني، لا في نفس صاحبه، ولا عند أحد من البشر، فهو تنزيل الحكيم الحميد.

4- لو كان من عند محمد لبث فيه همومه وأشجانه، ونحن نراه في عام واحد يفقد زوجه خديجة وعمه أبا طالب ولا سند له في الحياة غيرهما.. وفجيعته فيهما لا تقدر.. ومع ذلك لا يأتي لهما ذكر في القرآن ولا بكلمة.. وكذلك يموت ابنه إبراهيم ويبكيه، ولا يأتي لذلك خبر في القرآن.. لقد اتهم المنافقون زوجه عائشة بحديث الإفك، وهي أحب زوجاته إليه، واتهامها يمس كرامته وشرفه، وأبطأ الوحي، وتحرَّج الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتحرَّج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر، وبذل جهده في التحري والاستشارة، ومضى شهر بأكمله، ولم يزد على أنه قال لها آخر الأمر: "أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فيسبرئُك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله", وظل هكذا إلى أن نزل الوحي ببراءتها، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلامًا يقطع به ألسنة المتخرصين، ويحمي عرضه؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ, لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ, ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ, فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ}.

كما أننا نجد أيضا أن ذكر اسم محمد قليل جدا ونادر في القرآن إذا قارناه بغيره من الأنبياء كموسى وعيسى وغيرهما. فالقرآن معزول تماما عن الذات المحمدية.

5- الأسلوب القرآني يختلف عن الأسلوب النبوي: إذا نظرنا إلى ألفاظ وأسلوب الحديث النبوي وأسلوب القرآن في طريقة البيان العربي، نجد الفرق عظيما جداً والشقَّة بينهما واسعة ، لا يشبه أحدهما الآخر.

فحينما تنظر إلى ألفاظ الحديث ستستشعر الشخصية البشرية، كقوله –عليه الصلاة والسلام: "اتق الله حيتما كنت" أو "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى". أو "إن الحلال بين وإن الحرام بين". وغير ذلك من الأحاديث. بخلاف ما إذا نظرت إلى القرآن "{ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}. أو { يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}. فلا يمكن أن يكون بشرا يخاطب نفسه وهو المقصود في هذا الخطاب، فهذا من اللغو ومن أفعال غير العقلاء. وأفعال العقلاء –كما قيل قديما- منزهة عن العبث. وعليه فالحديث النبويُّ، جاء كله على الأسلوب المعتاد للعرب في التخاطب ، تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة في صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب ، ويعالج جزئيات القضايا والمسائل ويجيب عنها ، ويحاور ويناقش كما يتخاطب سائر الناس بعضهم مع بعض . ولكنه يتميز عن الكلام العربي المألوف بأن فيه لغة منتقاة غير نابية ، وأن فيه إحكاماً في التعبير ، وجمعاً للمعاني المقصودة بأوجز طريق وأقربه ، دون حشو ، ممَّا استحق به التسمية بجوامع الكلم . فهو كلام عربيٌّ من الطراز المعتاد المألوف، ولكنه على درجة عليا من أساليب البلغاء المعهودة. أما أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لا يجد الناظر فيه والسامع شبيهاً له فيما يعرف من كلام العرب وأساليبهم. يعالج الكليات، ويفرض الأحكام، ويضرب الأمثال، ويوجه المواعظ، في عموم لا تشبهه العمومات المألوفة، وخطاب فيه من التجويد ما يجعل له طابعاً منقطع النظير.

6- في القرآن الكريم توجيهات وعتاب للنبي صلى الله عليه وسلم: كما حدث بصدد الأعمى الذي انصرف عنه النبي إلى أشراف قريش: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4)}. وأحيانا تنزل الآية فتنقض عملا من أعمال النبي: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. وكقوله: {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}. وكقوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}. وكقوله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ}. وأحيانا يأمر القرآن محمدا بأن يقول لأتباعه ما لا يمكن أن يقوله لو أنه كان يؤلف الكلام تأليفا: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}. والأدلة من هذا القبيل كثيرة. فلا يوجد نبي يتطوع من تلقاء نفسه ليقول لأتباعه لا أدرى ما يفعل بي ولا بكم.. لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا.. ولا أملك لكم ضرا ولا نفعا. فإن هذا يؤدى إلى أن ينفض عنه أتباعه.

7- نجد في القرآن كلما مجملا غامضا غير مفهوم لا يفهمه محمد –صلى الله عليه وسلم- فيأتي إليه أتباعه –أي الصحابة- فيسألونه فلا يجد لهم جوابا. وتمر أياما أو أسابيع ثم يخبرهم محمد –صلى الله عليه وسلم- بجواب أسئلتهم. مثال ذلك أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ الْآيَةَ} قال: اشتدّ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا:- أي: لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم- كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرِ» ، فَلَمَّا قَرَأَهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَثَرِهَا {آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ فأنزل اللَّهُ: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَها مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لَا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا، قَالَ: «نَعَمْ» ، رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا، قَالَ: «نَعَمْ» ، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا مَا لَا طاقَةَ لَنا بِهِ، قَالَ: «نَعَمْ» ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ، قال: «نعم».

هو العاقل، إذا كان عنده جوابا وهو أحوج ما يكون إلى الاتباع وثقتهم فيه، لأخبرهم في الحين.

نظرة المستشرقين إلى الوحي

تمهيد:

الاستشراق مأخوذ من الشرق حيث نزلت الديانات الثلاث اليهودية والنصرانية والإسلام. ولما كان الإسلام هو الدين الغالب فأصبح معنى الاستشراق البحث عن معرفة الإسلام والمسلمين وبلاد المسلمين عقيدة وشريعة وتاريخاً ومجتمعاً وتراثاً...الخ. وكان الهدف من أول هذا العلم هو ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى، ليس من أجل تعلمه والاستهداء به، بل الهدف إيجاد واستخراج مابه من تناقضات –حسب زعمهم– وإثارة الشبهات حوله.

وقد تفاوتت آراء المستشرقين حول (مفهوم الوحي) وتفسيراتهم له، كما تفاوتوا في تقويم الرسول والرسالة، حتى تباينت وجهات نظرهم تبايناً أوصلها حد التناقض، وسبب ذلك تأرجح مناهجهم بين الجحود والإنصاف، فمن انساق وراء التعصب انزلق في مهاوي الحقد، ومن تفهّم روح الإسلام وانجلت له حقائقه، اتصف بالنَّزاهة، وخالط نور اليقين شَغاف قلبه، فأعلن إسلامه. فهم صنفان إذا:

أ– صنف اتخذ العلمَ منهجا له وقائده، وتحلى بالموضوعية والإنصاف، وهذا النوع قليل جدا، والغالب على هذا النوع أن يسلم في آخر أمره، ويقول بمعتقدات المسلمين، ويعترف بأن القرآن كلام الله، ويدافع عن ربانيته، ويربط وحي الله إلى محمد بوحي الله إلى غيره من الرسل كموسى وعيسى وغيرهما من الانبياء، ومن هؤلاء:

– (ليو بولد فايس) واسمه بعد الإسلام: (محمد أسد) نمساوي الأصل، وقد كان قبل إسلامه على الديانة اليهودية، له مؤلفات عدة، منها: "الطريق إلى مكة" و "الإسلام في مفترق الطرق". دفن بمدينة طنجة المغربية.

– (ايتيان ديني) واسمه بعد الإسلام: (ناصر الدين ديني) جزائري الأصل.

– (روجيه غارودي) واسمه بعد الإسلام: (رجاء غارودي) فرنسي الأصل. كان مسيحيا ثم ماركسيا ثم اعتنق الإسلام. من مؤلفاته: " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية".

ب– صنف كان أغلبه مرتبطا بوزارة المستعمرات، وكان هدفه سياسيا واجتماعيا وتجاريا لا علميا كما يزعمون. وأسمى أهدافه تشويه الدين والقرآن على الخصوص وإثارة الشبهات حوله وتحريفه.

وقد حاول بعض المستشرقين تفسير الوحي بإصابة محمد –عليه الصلاة والسلام– بالصرع، وأن أعراضه كانت تبدوا عليه، وإذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين ما يقول أنه وحي الله إليه ، في حين لم يكن هذا الوحي إلا أثرا من نوبات الصرع. لكن بعض الكُتاب الغربيين أنفسهم قد ردوا على هذه الشبهات ، ونقضوها من أساسها ، وقد ذكر "مونتجمرى وات" و "رودنسون" في كتبهما بطلان هذا الرأى وسخفه ، وأن الحالة التي تعترى الرسول في أثناء تلقيه الوحي تختلف عن المصابين به فعلا ، وآية ذلك أن الذي يصاب حقيقة بالصرع لا يذكر إطلاقا ما مر به إبانها، بل إنه ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسيانا تاما، ولا يذكر شيئا من ما صنع، أوحل به خلال ذلك. لكن النبي –عليه الصلاة والسلام– كان يذاكر بدقة بالغة ما يتلقاه، ويتلوه بعد ذلك على أصحابه.

فلذا يجب استبعاد صفات الهوس و الصرع والمرض النفسي التي اتهم بها المستشرقون النبي في أثناء نزول الوحي عليه ، وخاصة "جويستاف لوبون". ذلك أن التاريخ قد أنبأنا أن النبي لم يكن يتصف بهذه الصفات قبل البعثة بل إنه يصفه لنا بالعاقل والصادق الأمين. وإنه لم يكن قبل البعثة من أولئك الذين تعتريهم الوساوس والسلوك الشاذ ، والتصرف الغريب ، وإن معاصريه الذين أجهدوا أنفسهم في بيان مساوية لم يصفوه بالمرض والوسوسة و الصرع بالرغم من وصفهم له بالسحر والكهانة و استقائه عن معلوماته عن آخرين.

لقد وصف النبي –عليه الصلاة والسلام– شخصيا ظاهرة الوحي المنزل عليه وصفا دقيقا حينما شبهه بقوله: "أحيانا مثل صلصلة الجرس، وهو أشد عليه فيفصم عنه وقد وعى ما قال، وأحيانا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعي ما يقول". وعن طريق وعي الرسول الكامل لما يوحى به لم يخلط مرة واحدة بين شخصيته الإنسانية المأمورة المتلقية وشخصية الوحي الآمرة المتعالية.

وإذا ما فحصنا ما ذهب إليه "مونتجمرى وات" من أن الرسول شأنه شأن بعض عظماء الرجال المتمتعين بذلك "الخيال الخلاق" وأن مصدر الوحي المحمدي هو هذا "الخيال الخلاق" و "اللاوعي الجماعي" فإننا نجد هذه التعليلات خالية من الأدلة والبراهين العلمية الصحيحة. ذلك أن الخيال الخلاق الذي تحدث عنه "وات" قد فسره شخصيا بأن رجال الدين يرجعونه إلى الله ، ومن خلال هذا التفسير يكون الله هو مصدر هذا الخيال الخلاق، ولا أحد سواه خاصة اذا كانت هذه الأفكار الخلاقة أعلى من الإنسان ذاته وأسمى من عتبة الشعور. ويذهب مالك بن نبي في هذا الصدد إلى القول بأن الكشف كالإلهام من ألفاظ علم النفس المحدثة التى ماتبرح حتى عند القائلين بها موغلة في الإبهام لاحتلالها حاشية اللاشعور وهي حاشية كما يوحى اسمها أبعد ما تكون عن حالات الوحي والشعور... لأن ظاهرة الوحي عبارة عن انسلاخ الذات البشرية للموحى إليه واتصاله بالذات الروحانية ، والتي تخضع لتصور حوار علوي بين الذاتين ، ذات متكلمة آمرة معطية ، وذات مخاطبة مأمورة متلقية. أما ما ذهب إليه "وات" في قوله إن كلمات الوحي كانت لها صلة بمحمد قبل أن يصير واعيا بها وإن للرسل شخصيتين إحداهما واعية شاعرة ، والأخرى واعية ولا شاعرة، فإن السرد التاريخي لنزول الوحي وطريقة تلقى الرسول له وإبطائه عليه ومعاناته في تلقيه ما ينفي هذا الازدواج الموصوف به. ولكن الثابت تاريخيا أن الرسول منذ اللحظة الأولى التي نزل عليه القرآن فيها كان واعيا تماما بما يوحى إليه، وكان يبلغ رسالة ربه وتعليماته بصورة دقيقة.

أما ما ذهب إليه "جولد زهير" وأضرابه من استمداد الرسول معارفه من مصادر داخلية وخارجية... وكذلك قوله: إن الوحي المحمدي هو عبارة عن اجترار الرسول لتلك الأفكار الخارجية إبان عزلته ، وإن ما يصيب الرسول إبان فترة نزول الوحي عليه عبارة عن مسألة نفسية ترجع إلى تشبع المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها، فإن هذه الفرضية حاولت تفسير القرآن من خلال علم النفس وهو تفسير خاطئ، لأن علم النفس لم يصل بعد إلى درجة من الدقة والتطور بحيث يفرض طريقته في البحث علي الميادين الأخرى حتى يمكنه تفسير ظاهرة النبوة على ضوء التحليل النفسي الحديث. ثم إن القرآن الكريم لو كان مصدره محمدا لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه، ويدعي لنفسه القدسية بل الألوهية إن شاء، ولا نرى مانعا من ادعائه بذلك طالما كان الوحي الذي ينزل عليه لم يؤمن قومه بمصدره الإلهي بالرغم من اعترافهم له بالقوة العظيمة. فهولاء كبار القوم يذهبون إلى عمه عارضين عليه الاجتماع بابن أخيه مخيرين إياه بين عدة أمور كالرئاسة، والمال، والحسب، والغنى، مقابل أن يقلع عن دعوته، ويرفض الرسول هذه العروض جميعا ولا يرضى إلا بالوحدانية التي بسببها تدين لهم العرب، ويحكمون بها العجم، كل ذلك يؤكد عدم بشرية القرآن، وحقيقة الوحي الإلهي الذي ينزل عليه من لدن عزيز قدير، وهو في هذا الشأن تكون هذه الظاهرة لديه متماثلة عند جميع الأنبياء الآخرين، طالما كان المصدر واحدا والغاية واحدة. ومن هنا كان حرص القران على تسمية ما نزل علي قلب محمد وحيا، ليشابه مدلول الوحي بين جميع النبيين تشابه اللفظ الدال عليه عند ما يقول: (والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى، إن هو الا وحي يوحى).

وفي النهاية نصل إلى خلاصة مفادها: صحة الوحي الإلهي الذي ينزل على الرسول عن طريق جبريل –عليه السلام– وهذا الوحي خارج عن الذات المحمدية وليس أثرا من آثار المرض ، أوالهلوسة أو الجنون ، وليس تعبيرا عن اللاوعي الجماعي أو الشعور، وليس أثرا من الاثار الخارجية والداخلية التي تأثر بها الرسول سواء أكان من العرب قبل الإسلام أو من اليهود والنصارى المقيمين بمكة و المدينة إبان البعثة النبوية. ومن هنا تنهار كل قول المستشرقين. وما علينا إلا أن نؤمن بأن الوحي هو ما يكلف الله به أنبيائه من آياته وكتبه لتبليغها إلى عباده مهما اختلفت صوره وتعددت، تصديقا للآية الكريمة: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أويرسل رسولا فيوحي بإذنه مايشاء).



ثالثا: تنزلات القرآن وأسباب النزول.

أ- تنزلات القرآن:

اختلف العلماء في عدد تنزلات القرآن على فريقين؛ فريق رأى أنَّ القرآن له تنزلات عدّة، وفريق عارض هذا القول فقال: إن للقرآن تنزلاً واحداً، هو التنزل المباشر من الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة الملك جبريل عليه السلام.

لكن بعد التمحيص والتدقيق يظهر أن القول الأول هو الراجح، لأننا نجد آيات في القرآن يجب أن تثير انتباهنا، وأن نبحث لها عن صيغة للتوفيق بينها، وليحصل ذلك يجب أن نقول:

للقرآن ثلاث تنزلات:

- **التنزل الأول**: ونعني به: نزوله إلى اللوح المحفوظ، قال تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}، وقال أيضا: {حم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}. "أم الكتاب" الأم في اللغة الأصل. والمقصود به هنا اللوح المحفوظ. وكان هذا الوجود في اللوح بطريقة وفي وقت لا يعلمهما إلا الله تعالى ومن أطلعه على غيبه. وكان جملة لا مفرقا لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ولا صارف عنه.

والحكمة في هذا التنزل راجعة إلى الحكمة الإلهية من وجود اللوح المحفوظ نفسه؛ حيث جعله الله عز وجل سجلاًّ لما كان وما يكون من قضاء الله وقدره، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. كما قال جل شأنه: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}. وللإيمان باللوح وبالكتابة فيه أثر صالح في استقامة المؤمن على الجادة وتفانيه في طاعة الله ومراضيه وبعده عن مساخطه ومعاصيه لاعتقاده أنها مسطورة عند الله في لوحه. مسجلة لديه في كتابه. كما قال جل ذكره: {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ}.

- **التنزل الثاني**: ويقصد به: نزول القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السماء الدنيا جملة واحدة، والدليل عليه قوله سبحانه في سورة الدخان: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} . وفي سورة القدر {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} . وفي سورة البقرة {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} .

دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة توصف بأنها مباركة أخذا من آية الدخان وتسمى ليلة القدر أخذا من آية سورة القدر وهي من ليالي شهر رمضان أخذا من آية البقرة. وإنما قلنا ذلك جمعا بين هذه النصوص في العمل بها ودفعا للتعارض فيما بينها. ومعلوم بالأدلة القاطعة كما يأتي أن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا لا في ليلة واحدة بل في مدى سنين عددا فتعين أن يكون هذا النزول الذي نوهت به هذه الآيات الثلاث نزولا آخر غير النزول على النبي صلى الله عليه وسلم. وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول وأنه في بيت العزة من السماء الدنيا كما تدل الروايات الآتية:

1- أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: فُصِل القرآن من الذكر فَوُضِع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم.

2- وأخرج النسائي والحاكم والبيهقي من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة ثم قرأ: {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} . {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً} .

وهذان الحديثان موقوفان على ابن عباس غير أن لهما حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم –كما ذكر السيوطي- لما هو مقرر من أن قول الصحابي ما لا مجال للرأي فيه ولم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات حكمه حكم المرفوع. ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فثبت الاحتجاج بها.

- **التنزل الثالث**: والمراد به: هو نزول جبريل – عليه السلام – بالقرآن من السماء الدنيا على قلب سيدنا محمد – عليه الصلاة والسلام – منجما في ثلاث وعشرين سنة. ودليله قول الله تعالى في سورة الشعراء مخاطبا لرسوله عليه الصلاة والسلام: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}.

ب- أسباب النزول

تمهيد:

- لقد اعتنى الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول، ولمسوا شدة الحاجة إليه في تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف، ومن أشهرهم: "علي بن المديني" شيخ البخاري، ثم "الواحدي", في كتابه "أسباب النزول"، ثم "الجُعبري", الذي اختصر كتاب "الواحدي" بحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئًا، ثم شيخ الإسلام "ابن حجر العسقلاني", الذي ألَّف كتابًا في أسباب النزول. ثم "السيوطي", الذي قال عن نفسه: "وقد ألَّفت فيه كتابًا حافلًا موجزًا محررًا لم يُؤلَّف مثله في هذا النوع، سميته "لُباب المنقول في أسباب النزول".

- والقرآن الكريم في هذا الباب على قسمين:

أ- قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الخالق. وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان.

ب- وقسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة. والسبب إما أن يكون سؤال يجيب الله عنه، أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان، أو فعلٌ واقعٌ يحتاج إلى معرفة حكمه... وهذا القسم هو موضوع بحثنا.

وما ذُكر هنا لا يتعارض مع قول ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: "وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ وَأَيْنَ نَزَلَتْ وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانَ أَحَدٍ أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَنَالُهُ الْمَطَايَا لَأَتَيْتُهُ". فكلام ابن مسعود هنا ليس معناه أن ما من سورة في القرآن إلا ولها سبب نزول، وإنما هو يتحدث هنا على أنه إن وجدت آية أو سورة لها سبب نزول فأنا أعلم فيمن وأين نزلت.

ج- طريقة معرفة أسباب النزول:

- إن مدار الاعتماد على معرفة سبب النزول: صحة الرواية عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحًا لا يكون بالرأي، بل يكون له حكم المرفوع، قال الواحدي: "لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدُّوا في الطلب" قال "محمد بن سيرين: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن، وهو يعني الصحابة. ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما رُوِي من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول.

د- تعريف سبب النزول:

يعرف سبب النزول بأنه: "ما نزلت الآية أو الآيات مبينة لحكمه أيام وقوعه".

وقولنا: "أيام وقوعه" لِيُخْرِجَ مَا ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي سُورَةِ الْفِيلِ مِنْ أَنَّ سَبَبَهَا قِصَّةُ قُدُومِ الْحَبَشَةِ بِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ فِي شَيْءٍ بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ الْإِخْبَارِ عَنِ الْوَقَائِعِ الْمَاضِيَةِ كَذِكْرِ قِصَّةِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَبِنَاءِ الْبَيْتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} سَبَبُ اتِّخَاذِهِ خَلِيلًا لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ نُزُولِ الْقُرْآنِ كَمَا لَا يَخْفَى.

هـ- فوائد معرفة أسباب النزول:

أ- **الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها.** لما هو معلوم من الارتباط بين السبب والمسبب، وقد روي على مروان بن الحكم في معنى قوله تعالى: {لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ}. أنه قال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذّبا لنعذّبنّ أجمعون؟ حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إيه ما سألهم عنه».

من ذلك أيضا قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}. فحكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان الخمر مباحة ويحتجان بهذه الآية وخفي عليهما سبب نزولها، وَلَوْ عَلِمَا سَبَبَ نُزُولِهَا لَمْ يَقُولَا ذَلِكَ، وهو ما قاله الحسن وغيره لما نزل تحريم الخمر قالوا كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم وقد أخبر الله أنها رجس فأنزل الله تعالى {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا...}

قال الواحدي: "لَا يُمْكِنُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ دُونَ الْوُقُوفِ عَلَى قِصَّتِهَا وَبَيَانِ نُزُولِهَا". وقد ابن دقيق العيد أيضا: "بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ طَرِيقٌ قَوِيٌّ فِي فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ". وقال ابن تيمية: "مَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُوَرِّثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ".

ب- **معرفة وجه الحكمة التي ينطوي عليها تشريع الحكم،** مما يكون أدعى لتفهمه وتقبله، فمن قرأ أسباب نزول آيات تحريم الخمر متدرجة واحدة بعد الأخرى، أدرك ضرورة تحريم الخمر، وبعثه موقف الصحابة عند نزول تحريمها الباتّ لأن يقتدي بهم ويأتسي بعملهم فينزجر عما قد يكون عليه من فعل محرّم.

ج- **عصمة المسلم والمفسر عن الوقوع في الخطإ والزلل.** مثال ذلك قوله تعالى :{وَلِلهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} حيث المتبادر من مدلول ألفاظ الآية ومن مظاهر سياقها أن المصلي له أن يصلي إلى أية جهة كانت في السفر والحضر فلله المشارق والمغارب فأينما يُولِي المصلي وجهه فقد توجه إلى الله تعالى وهذا خلاف الإجماع، وهو يتعارض مع قوله تعالى :﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾، وبالنظر في أسباب النزول تجد أنها نزلت في الصلاة المستحبة يستطيع الإنسان أن يؤديها على راحلته أينما اتجهت الراحلة دون اشتراط الاتجاه نحو القبلة.

د- **دفع توهم الحصر عن النص.** من ذلك قوله تعالى{ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ}. فالظاهر من الآية أن المحرمات محصورة في الأربعة المذكورة. لكن قَالَ الشَّافِعِيُّ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا حَرَّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَأَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَكَانُوا عَلَى المضادة والمحاداة جَاءَتِ الْآيَةُ مُنَاقِضَةً لِغَرَضِهِمْ فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَا حَلَالَ إِلَا مَا حَرَّمْتُمُوهُ وَلَا حَرَامَ إِلَا مَا أحللتموه نازلا نزلة مَنْ يَقُولُ: لَا تَأْكُلِ الْيَوْمَ حَلَاوَةً فَتَقُولُ: لَا آكُلُ الْيَوْمَ إِلَا الْحَلَاوَةَ وَالْغَرَضُ الْمُضَادَّةُ لَا النَّفْيُ وَالْإِثْبَاتُ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: لَا حَرَامَ إِلَا مَا أَحْلَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ ولحم الخنزير وما أهل لغير اللَّهِ بِهِ وَلَمْ يَقْصِدْ حِلَّ مَا وَرَاءَهُ إِذِ الْقَصْدُ إِثْبَاتُ التَّحْرِيمِ لَا إِثْبَاتُ الْحِلِّ.

- الحِكم والأسرار من نزول القرآن مفرقا منجما:

لتنجيم نزول القرآن الكريم أسرار عدة وحكم كثيرة نستطيع أن نجملها فيما يلي:

قال الله تعالى في سورة الفرقان: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}. فذكرت الآيتان ثلاث حكم من نزول القرآن مفرقا.

1- تثبيت فؤاد رسول الله, صلى الله عليه وسلم:

كان الوحي يتنزل على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فترة بعد فترة، بما يثبِّت قلبه على الحق، ويُشْحذ عزمه للمضي قدمًا في طريق دعوته، فنزول القرآن مفرقا منجما كان أكمل وأحسن، ولهذا قال: {كَذَلِكَ} أنزلناه متفرقا {لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسَل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول المَلَك إليه، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل.

2– وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا:

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، فكان صعبا أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته، فكان نزوله مفرقًا خير عون لها على حفظه في صدورها وفهم آياته، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة، وتدبروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها، واستمر هذا منهجًا للتعليم في حياة التابعين, عن أبي نضرة قال: "كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعَشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات"، وعن خالد بن دينار قال: "قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يأخذه من جبريل خمسًا خمسًا".

3– وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا:

كان المشركون في بحث مستمر عن تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم بكل الوسائل، فتارة يذهبون إلى اليهود سيألونهم عن أخبار الأمة السابقة ليسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عنها ويعجزونه بذلك، وتارة يطلبون منه الخوارق والمعجزات. فكان القرآن يرد عليهم في كل مرة ويدمغهم بالحجج.

4– التدرج في تربية الأمة الناشئة علما وعملا.

يقول السيد قطب في كتابه ظلال القرآن: ولقد جاء هذا القرآن ليربي أمة، وينشيء مجتمعا، ويقيم نظاما. والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثر وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع. والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد. إنما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج وتتدرج في مراقيه رويدا رويدا، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئا فشيئا، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخما ثقيلا عسيرا. وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح في اليوم التالي أكثر استعدادا للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها والتذاذا بها.

5– الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد.

إن هذا القرآن الذي نزل مُنَجَّمًا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في أكثر من عشرين عامًا تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النسج، دقيق السبك، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور، كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يُعهد له مثيل في كلام البشر: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}. ولو كان هذا القرآن من كلام البَشر قيل في مناسبات متعددة، ووقائع متتالية، وأحداث متعاقبة، لوقع فيه التفكك والانفصام، واستعصى أن يكون بينه التوافق والانسجام: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا}.

فأحاديث رسول الله, صلى الله عليه وسلم –وهي في ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم– لا تنتظم حباتها في كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض في وحدة وترابط بمثل ما عليه القرآن الكريم أو ما يدانيه اتساقًا وانسجامًا. فكيف بكلام سائر البشر وأحاديثهم: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}.

6– التدرج في التشريع:

قضت إرادة الله أن يتم الإصلاح الاجتماعي بصورة تدريجية؛ لأنه ليس من الممكن أن ينقلب المجتمع الجاهلي الفاسد بين عشية وضحاها إلى مجتمع صالح، فكانت آيات القرآن تراعي الانقلاب التدريجي، وتراعي بناء الأسس الثابتة لهذا التغيير، فنزلت أولا الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها، والآيات الداعية إلى محاسن الأخلاق، حتى إذا آمن الناس وزكت نفوسهم نزلت آيات الحلال والحرام في تدرج حكيم. ويدل على ذلك ما رواه البخاري عن

عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنى.

– تعدد الأسباب والنازل واحد

قد تتعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة، ولهذا أربع حالات:

الحالة الأولى: وهي ما صحت فيه إحدى الروايتين دون الأخرى فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب. ورد الأخرى غير الصحيحة. مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} . وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن جروا دخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فدخل تحت السرير فمات فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: "يا خولة ما حدث في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ جبريل لا يأتيني" فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فأنزل الله: {وَالضُّحَى} إلى قوله {فَتَرْضَى} . فنحن بين هاتين الروايتين نقدم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها دون الثانية لأن في إسنادها من لا يعرف.

الحالة الثانية: وهي صحة الروايتين كلتيها ولإحداهما مرجح، فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة. والمرجح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى أو أن يكون راوي إحداهما مشاهدا للقصة دون راوي الأخرى. مثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة. وهو يتوكأ على عسيب. فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم: لو سألتموه. فقالوا: حدثنا عن الروح. فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً} . وما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل. فقالوا: اسألوه عن الروح فسألوه فأنزل الله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} الآية.

فهذا الخبر الثاني يدل على أنها بمكة وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه. أما الأول فصريح في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه وهو أرجح من وجهين: أحدهما أنه رواية البخاري أما الثاني فإنه رواية الترمذي ومن المقرر أن ما رواه البخاري أصح مما رواه غيره. ثانيهما أن راوي الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها كما تدل على ذلك الرواية الأولى بخلاف الخبر الثاني فإن رواية ابن عباس لا تدل الرواية على أنه كان حاضر القصة ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وفي الأداء وفي الاستيثاق ليست لغير المشاهدة ومن هنا أعملنا الرواية الأولى وأهملنا الثانية.

الحالة الثالثة: وهي ما استوت فيه الروايتان في الصحة ولا مرجح لإحداهما لكن يمكن الجمع بينهما بأن كلا من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معا لتقارب زمنيهما فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب لأنه الظاهر ولا مانع يمنعه. قال ابن حجر: لا مانع من تعدد الأسباب. مثال ذلك: ما أخرجه البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "البينة أو حد في ظهرك". فقال يا رسول الله إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة. وفي رواية أنه قال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله تعالى ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ} حتى بلغ {إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} اهـ وهذه الآيات من سورة النور.

وأخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن سهل بن سعد أن عويمرا أتى عاصم بن عدي وكان سيد بني عجلان فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله وفي رواية مسلم فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها. فقال عويمر والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فجاءه عويمر فقال يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: "قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك". فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعنها اهـ. فهاتان الروايتان صحيحتان ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانيهما على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية ثم قفاه عويمر قبل إجابته فسأل بواسطة عاصم مرة وبنفسه مرة أخرى فأنزل الله الآية إجابة للحادثين معا. ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال إحداهما وإهمال الأخرى إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه. ثم لا جائز أن نردهما معا لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما. ولا جائز أيضا أن نأخذ بواحدة ونرد الأخرى لأن ذلك ترجيح بلا مرجح. فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معا. وإليه جنح النووي وسبقه إليه الخطيب فقال: لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد اهـ.

ويمكن أن يفهم من الرواية الثانية أن آيات الملاعنة نزلت في هلال أولا ثم جاء عويمر فأفتاه الرسول بالآيات التي نزلت في هلال. قال ابن الصباغ: قصة هلال تبين أن الآية نزلت فيه أولا. وأما قوله صلى الله عليه وسلم لعويمر: "إن الله أنزل فيك وفي صاحبتك" فمعناه ما نزل في قصة هلال لأن ذلك حكم عام لجميع الناس.

الحالة الرابعة: وهي استواء الروايتين في الصحة دون مرجح لإحداهما ودون إمكان للأخذ بهما معا لبعد الزمان بين الأسباب فحكمها أن تحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان أو تلك الروايات لأنه إعمال لكل رواية ولا مانع منه. قال الزركشي في البرهان: وقد ينزل الشيء مرات تعظيما لشأنه وتذكيرا عند حدوث سببه خوف نسيانه اهـ.

مثال ذلك ما أخرجه البيهقي والبزار عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد وقد مُثِّل به فقال: "لأمثلن بسبعين منهم مكانك" فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} إلى آخر السورة وهن ثلاث آيات.

وأخرج في رواية اخرى أخرجها الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب أنها نزلت في فتح مكة.

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين فبعد أن يكون نزول الآية كان مرة عقيبهما معا. وإذن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها مرة في أحد ومرة يوم الفتح. وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية.

وعليه فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين اللتين في المدينة وتكون عدة مرات نزولها ثلاثا. وبعضهم يقول إن سورة النحل مكية ما عدا خواتيمها تلك فإنها مدنية وعليه فعدة مرات نزولها اثنتان فقط.

معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن

وللعلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل أقوال، نجملها فيما يأتي:

أول ما نزل:

1- أصح الأقوال أن أول ما نزل هو قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}, ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أول ما بُدِئَ به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم, فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يأتي حِراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حِراء، فجاءه المَلَك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله, صلى الله عليه وسلم: فقلت: "ما أنا بقارئ"، فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: "ما أنا بقارئ"، فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: "ما أنا بقارئ"، فغطَّني الثالثة حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} . حتى بلغ: {مَا لَمْ يَعْلَمْ} ، فرجع بها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ترجف بوادره". الحديث.

2- وقيل إن أول ما نزل هو قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا المدَّثِّر} .. لما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: {يَا أَيُّهَا المدَّثِّرُ}...

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبيِّن جابر أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ، فإن أول ما نزل منها صدرها.

3- وقيل أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة. ولكن الحديث المستدل به في هذا وهو من رواية البيهقي لا يصلح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقا، فهو حديث مرسل سقط من سنده صحابي.

4- وقيل أن أول ما نزل هو {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} واستدل قائلوه بما أخرجه الواحدي بسنده عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} وأول سورة اقْرَأْ. وهذا الاستدلال مردود من ناحيتين أيضا إحداهما أن الحديث مرسل كسابقه فلا يناهض المرفوع. الثانية: أن البسملة كانت بطبيعة الحال تنزل صدرا لكل سورة إلا ما استثني. إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر سورة اقرأ فلا يستقيم اعتبار الأولية في نزولها قولا مستقلا برأسه.

والقول الأول المؤيد بحديث عائشة هو القوي الراجح المشهور.

آخر ما نزل:

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق واستند كل منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فكان هذا من دواعي الاشتباه وكثرة الخلاف على أقوال شتى:

1- أن آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: {وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} . أخرجه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس وكذلك أخرج ابن أبي حاتم قال: آخر ما نزل من القرآن كله {وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} الآية. وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليال ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول.

2- أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى في سورة البقرة أيضا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} .

3- أن آخر ما نزل آية الدين في سورة البقرة أيضا وهي قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ} إلى قوله سبحانه: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} وهي أطول آية في القرآن.

والأقوال في هذا كثيرة أوصلها الزرقاني –رحمه الله- إلى عشرة. ثم قال رحمه الله: ولكن النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولا هو قول الله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} . وذلك لأمرين أحدهما: ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين, بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم المعاد وما تنوه به من الرجوع إلى الله واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها. ثانيهما: التنصيص في رواية ابن أبي حاتم السابقة على أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ولم تظفر الآيات الأخرى بنص مثله.

- أما قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا}. فليست هي آخر آية نزلت كما هو المشهور بين الناس، فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع، ويدل ظاهرها على إكمال الفرائض والأحكام، وقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية ما يقارب واحدا وثمانين يوما، بينما قوله تعالى: {واتقو يوما ترجعون فيه إلى الله ...} نزلت قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بتسعة أيام فقط.

رابعا: جمع القرآن

تمهيد

- المؤمن يدرك يقينا بأنه لا يوجد على الإطلاق أي كتاب في الكون قد حضي باهتمام مثل ما حضي به القرآن في جمعه خاصة... فالقرآن قد جُمع على أصح مهنج وأدق وسيلة، وقد ألهم الله نبيه صلى الله عليه وسلم كما ألهم الصحابة مجموعة من الوسائل في حفظ هذ القرآن وكتابته وتوثيقه وتدوينه...

- ولفظة "جمع القرآن" تطلق تارة ويراد بها عند العلماء أحد معنيين..



المعنى الأولى: حفظه واستظهاره في الصدور. وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله تعالى في خطابه لنبيه –صلى الله عليه وسلم– وقد كان يحرِّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصًا على أن يحفظه: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ, إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ, فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ, ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}.

المعنى الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته كله، مفرَّق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة، في صحيفة على حدة، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعًا وقد رُتِّب إحداها بعد الأخرى.

فهذا جمع في الصحائف والسطور، وذاك جمع في القلوب والصدور.

وقد مر جمع القرآن الكريم بمراحل ثلاث:

أولا: جمعه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ويقصد به حفظه عن ظهر قلب وكتابته كله متفرقا على الأدوات المتوفرة في ذلك الوقت.

ثانيا: جمعه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ويقصد به كتابته وجمعه بين دفتي مصحف واحد مسلسل الآيات مرتب السور.

ثالثا: جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه، ويقصد به توحيد الناس وجمعهم على مصحف واحد وحرف واحد. وسنتناول بالتفصيل –إن شاء الله– هذه المراحل في المباحث التالية.

1- جمع القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مولعًا بالوحي، يترقب نزوله عليه بشوق، فيحفظه ويفهمه، مصداقًا لوعد الله: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}, فكان بذلك أول الحُفَّاظ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة، وقد أورد البخاري في صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحفَّاظ، هم: عبد الله بن مسعود وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبَيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

وذكر هؤلاء الحفاظ السبعة، لا يعني الحصر، فإن النصوص الواردة في كتب السير والسُّنن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون في حفظ القرآن، ويُحَفِّظونه أزواجهم وأولادهم. ويقرءون به في صلواتهم بجوف الليل... فهذا الحصر محمول على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله في صدورهم، وعرضوه على النبي –صلى الله عليه وسلم– واتصلت بنا أسانيدهم، أما غيرهم من حفظة القرآن –وهم كثر– فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها، وهذا هو الجمع الذي يقصد به الحفظ، ثم مرحلة الكتابة حيث اتخذ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كتَّابًا للوحي من أجلَّاء الصحابة. منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وأبان بن سعيد وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وغيرهم، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها، ويرشدهم إلى موضعها من سورتها. كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم، دون أن يأمرهم النبي –صلى الله عليه وسلم– فيخطونه في العسب، واللِّخاف، والكرانيف، والرقاع، والأقتاب، فعن زيد بن ثابت قال: "كنا عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نُؤَلِّف القرآن من الرقاع".

وكان جبريل يعارض رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بالقرآن كل سنة في ليالي رمضان، فعن عبد الله بن عباس, رضي الله عنهما: "كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة".

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ما لديهم من القرآن حفظًا وكتابة كذلك.

ولم تكن هذه الكتابة في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– مجتمعة في مصحف عام، بل عند هذا ما ليس عند ذاك، وقد نقل العلماء أن نفرًا منهم: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأُبَي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود – قدجمعوا القرآن كله على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخرًا عن الجميع.

وقُبِضَ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والقرآن محفوظ في الصدور، ومكتوب في الصحف على نحو ما سبق، مفرَّق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة في صحيفة على حدة، بالأحرف السبعة الواردة، وإنما لم يُجمع في مصحف عام لاعتبارات كثيرة:

أولها: أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر، فالمسلمون وقتئذ بخير والقراء كثيرون والإسلام لم يستبحر عمرانه بعد والفتنة مأمونة والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة.

وثانيها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات.

ثالثها: أن القرآن لم ينزل مرة واحدة بل نزل منجما في مدى عشرين سنة أو أكثر.

رابعها: أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله، فنزوله كان على حسب الأسباب أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات.

شبهة:

أثار المستشرق آرثر جفري في مقدمته على الكتاب الذي حققه لأبي بكر السجستاني أن القرآن الكريم لم يجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مستندا في ذلك على قول زيد بن ثابت رضي الله عنه حيث قال: "قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن القرآن قد جُمع في شيء".

والرد على هذه الشبهة يكون من نفس الكتاب حيث ورد فيه حديث عن زيد بن ثابت يقول فيه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبة الوحي أن يضعوها في موضع كذا، من سورة كذا.

أما قول زيد بن ثابت: "قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم..." فمعناها بيِّنٌ، وهو أن القرآن لم يجمع في مكان واحد، وإنما جمع متفرقا في العسب واللخاف وغير ذلك.

2- جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

لما تولى أبو بكر الخلافة بعد موت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان أعظم شيئ قام به هو محاربة أهل الردة والقضاء على هذه الفتنة، حتى جهَّز الجيوش وأوفدها إليهم، ولما كانت معركة أهل اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة كثُر القتل في الصحابة، فاستشهد سبعون قارئًا منهم، فهال ذلك عمر بن الخطاب، ودخل على أبي بكر -رضي الله عنه- وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع، فإن القتل قد استحر يوم اليمامة بالقرَّاء - ويُخشى إن استحر بهم في المواطن الأخرى أن يضيع القرآن ويُنْسَى.

فقد روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال: "أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرَّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرَّاء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أريد أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله, صلى الله عليه وسلم؟ قال: عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر - قال زيد: قال: أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله, صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللِّخاف وصدور الرجال، ووجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}, حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر".

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، وقوله في الحديث: "ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره" لا ينافي هذا، ولا يعني أنها ليست متواترة، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره، وكان زيد يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، لأن زيدًا كان يعتمد على الحفظ والكتابة معًا، فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير منهم، ويشهدون بأنها كُتِبت، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبي خزيمة الأنصاري.

وأخرج ابن أبي داود أيضًا من طريق هشام بن عروة عن أبيه: أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه" ورجاله ثقات مع انقطاعه، قال ابن حجر: "وكأن المراد بالشاهدين: الحفظ والكتاب". قال أبو شامة: "وكان غرضهم أن لا يُكتب إلا من عين ما كُتِبَ بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم- لا من مجرد الحفظ..."

وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوبًا من قبل في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكنه كان مفرَّقًا في الرقاع والأكتاف والعسب. فأمر أبو بكر بجمعه في مصحف واحد مرتب الآيات والسور وأن تكون كتابته غاية من التثبيت مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، فكان أبو بكر -رضي الله عنه- أول مَن جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف، وإن وُجِدَت مصاحف فردية عند بعض الصحابة، كمصحف علي، ومصحف أُبَي، ومصحف ابن مسعود، فإنها لم تكن على هذا النحو، ولم تنل حظها من التحري والدقة، والجمع والترتيب، والاقتصار على ما لم تُنسخ تلاوته، والإجماع عليها، بمثل

ما نال مصحف أبي بكر، فهذه الخصائص تميَّز بها جمع أبي بكر للقرآن، ويرى بعض العلماء أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين في عهد أبي بكر بهذا الجمع، وعن علي قال: "أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول مَن جمع كتاب الله".

قال الزرقاني رحمه الله: "... و لكن أبا بكر أراد أن يجمع بين الحفظ و الكتابة زيادة في التوثق ومبالغة في الاحتياط. و على هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير. و كان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف و لعمر في الاقتراح و لزيد في التنفيذ و للصحابة في المعاونة و الإقرار".

وهذا الجمع هو المسمى بالجمع الثاني.

خصائص ومزايا جمع أبي بكر:

أ– أنه جمع القرآن على أدقِّ وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول التثبت العلمي.

ب– حصول إجماع الأمة على قبوله، ورضى جميع المسلمين به.

ج– بلوغ ما جُمِع في هذا الجمع حدّ التواتر، إذ حضره وشهد عليه ما يزيد على عدد التواتر من الصحاب .

د– أنه اقتصر في جمع القرآن على ما ثبت قرآنيته من الأحرف السبعة، بثبوت عرضه في العرضة الأخيرة، فكان شاملاً لما بقي من الأحرف السبعة، ولم يكن فيه شيء مِمَّا نُسِخَت تلاوته .

3– جمع القرآن الكريم في عهد عثمان رضي الله عنه

لما كان عهد عثمان رضي الله عنه واتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرّق القرَّاء في الأمصار، وحمل كل منهم من القراءات ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. اختلف الناس في القراءات وصار كل قارئ منهم ينتصر لقراءته، ويخطئ قراءة غيره، وعظم الأمر. فأفزع ذلك عثمان رضي الله عنه، وخشي عواقب هذا الاختلاف السيئ في التقليل من الثقة بالقرآن الكريم وقراءته الثابتة. ويدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس: "أن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان، أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسلَ عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليكِ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق، قال زيد: آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}, فألحقناها في سورتها في المصحف.

ودلت الآثار على أن الاختلاف في وجوه القراءة لم يفزع منه حذيفة بن اليمان وحده، بل شاركه غيره من الصحابة في ذلك،

من ذلك ما رواه سويد بن غفلة قال: "قال علي: لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصحف إلا عن ملأ منا. قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ قد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرًا، قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يُجْمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا: فنِعْمَ ما رأيت".

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة، كُتِبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ليجتمع الناس على قراءة واحدة، ورد عثمان الصحف إلى حفصة، وبعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف. واحتبس بالمدينة واحدًا هو مصحفه الذي يسمى الإمام. وتسميته بذلك لما جاء في بعض الروايات السابقة من قوله: "اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إمامًا" وأمر أن يُحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف، وتلقت الأمة ذلك بالطاعة، وتركت القراءة بالأحرف الستة الأخرى، ولا ضير في ذلك. فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة، ولو أوجب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على الأمة القراءة بها جميعًا لوجب نقل كل حرف منها نقلًا متواترًا تقوم به الحجة ولكنهم لم يفعلوا ذلك فدل هذا على أن القراءة بها من باب الرخصة. وأن الواجب هو تواتر النقل ببعض هذه الأحرف السبعة. وهذا هو ما كان.

خصائص ومزايا جمع عثمان رضي الله عنه:

أ- الاقتصار على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحادا.

ب- وإهمال ما نسخت تلاوته ولم يستقر في العرضة الأخيرة.

ج- وترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن.

د- وكتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن وتوزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد.

هـ- وتجريدها من كل ما ليس قرآنا كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحا لمعنى أو بيانا لناسخ ومنسوخ أو نحو ذلك.

أقوال المنصفين في جمع القرآن:

- قَالَ عَلِيٌّ : بن أبي طالب رضي الله عنه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي عُثْمَانَ تَقُولُونَ حَرَقَ الْمَصَاحِفَ ، وَاللَّهِ مَا حَرَقَهَا إلا عَنْ مَلأٍ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وَلَوْ وُلِّيتُ مِثْلَ مَا وُلِّيَ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي فَعَلَ.

- قال الطبرسي –وهو من رؤساء الشيعة- في كتابه مجمع البيان ما نصه: "أما الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها وأما النقصان فهو أشد استحالة. ثم قال: إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم يبلغه شيء فيما ذكرناه".

- قال المستشرق لوبلو: "إنّ القرآن اليوم هو الكتاب الربّاني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر".

- ويقول أيضا المستشرق وليام موير: "إنّ المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يدٍ إلى يدٍ حتّى وصل إلينا بدون تحريفٍ، وقد حُفِظ بعنايةٍ شديدةٍ بحيث لم يطرأ عليه أي تغييرٍ يُذكَر، بل نستطيع القول أنّه لم يطرأ عليه أيّ تغييرٍ على الاطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الِإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد".

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:

يتبين من النصوص أن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية.

فالباعث لدى أبي بكر –رضي الله عنه- لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته، حين استحر القتل بالقرَّاء.

والباعث لدى عثمان –رضي الله عنه- كثرة الاختلاف في وجوه القراءة، حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار وخطَّأ بعضهم بعضًا.

وجمع أبي بكر للقرآن كان نقلًا لما كان مفرَّقًا في الرّقاع والأكتاف والعسب. وجمعًا له في مصحف واحد مرتب الآيات والسور. مقتصرًا على ما لم تُنسخ تلاوته، مشتملًا على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

وجمع عثمان للقرآن كان نسخًا له على حرف واحد من الحروف السبعة، حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد. وحرف واحد يقرءون به دون ما عداه من الأحرف الستة الأخرى.

ولا ضير أن نذكر هنا بعض الأبيات للناظم: محمد العاقب، التي ضمنها منظومته "كشف العمى"، وهو يتحدث عن جمع المصحف في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم حيث يقول:

لم يُجمعِ القرآنُ في مُجلَّدِ *** على الصحيح في حياة أحمدِ

للأمن فيه من خلاف ينشأُ *** وخيفة النسخ بوحي يطرأُ

وكان يُكتب على الأكتافِ *** وقطع الأدم واللخافِ

وبعد إغماض النبي فالأحق *** أن أبا بكر بجمعه سبقْ

جمعه غير مرتب السور *** بعد إشارة إليه من عمرْ

ثم تولى الجمع ذو النورين *** فضمه ما بين دفتينِ

مـرتب السـور والآيـات *** مخرجـاً بأفصـح اللغـاتِ

وجـاء في عـد المصاحـف اللـوا *** فرقن في القرى خـلاف مـن روى

هـل خمسـةٌ أو سبعـةٌ أو أربعـة *** والقـولـة الأولـى هي المتبعة

خامسا: المكي والمدني

تمهيد:

ارتبط هذان المصطلحان "مكة والمدينة" بالإسلام، قرآنا وسنة وسيرة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ونشأ فيها وقضى مرحلة أساسية بها، تنزل خلالها من القرآن الشيئ الكثير، ثم هاجر بعدها إلى المدينة حيث استمر نزول الوحي أيضا، فلذا نجد السور المكية والسور المدنية، لارتباط الوحي بهذين المنطقتين.

والعلماء قد اعتنوا بتحقيق المكي والمدني عناية فائقة، فتتبعوا القرآن آية آية، وسورة سورة، لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب، فكان أهم الأنواع التي يتدارسونها في هذا المبحث: – ما نزل بمكة. – ما نزل بالمدينة. – ما اختُلِفَ به. – الآيات المكية في السور المدنية. – الآيات المدنية في السور المكية. – ما نزل بمكة وحكمه مدني. – ما نزل بالمدينة وحكمه مكي. – ما يشبه نزول المكي في المدني. – ما يشبه نزول المدني في المكي. – ما حُمل من مكة إلى المدينة. – ما حُمل من المدينة إلى مكة. – ما نزل ليلاً وما نزل نهارًا. – ما نزل صيفًا وما نزل شتاءً. – ما نزل في الحَضَر وما نزل في السَّفَر.

فهذه أنواع أساسية، يرتكز محورها على المكي والمدني، ولذا سُمِّي هذا بـ "علم المكي والمدني".

وليس غرضنا في هذا المبحث أن نستقصي بالتفصيل الآيات والسور المكية والمدنية، ولكن حسبنا هنا أن نتكلم على الاصطلاحات في معنى المكي والمدني، وعلى فائدة العلم بالمكي والمدني، وعلى الطريق الموصلة إليه والضوابط التي يعرف بها وما يتعلق بذلك.

الطريق إلى معرفة المكي والمدني

اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسيين: المنهج السماعي النقلي، والمنهج القياسي الاجتهادي.

والمنهج السماعي النقلي يستند إلى ما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك لأنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم بيان للمكي والمدني. وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان. ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل.

قال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني في "الانتصار": "إنما يُرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين, ولم يرد عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في ذلك قول لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يُعرف ذلك بغير نص الرسول".

والمنهج القياسي الاجتهادي يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئًا من حوادثه قالوا إنها مدنية، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي أو تتضمن شيئًا من حوادثه قالوا إنها مكية، وإذا وُجِدَ في السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية، وإذا وُجِدَ فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية، وهذا قياس اجتهادي.

الأسس المعتمدة في التمييز بين المكي والمدني (التعريف الاصطلاحي)

للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة أسس: أ– الزمان. ب– والمكان. ج– والإنسان.

أ– الزمان: أي باعتبار زمن النزول، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة، أو عرفة: مدني، كالذي نزل عام الفتح، كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّواْ الأَمَانَات إِلَى أَهْلِهَا}, فإنها نزلت بمكة في جوف



الكعبة عام الفتح الأعظم، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا}, وهذا الرأي هو صحيح السليم المشهور، فهو يتسم بالحصر والاطراد والضبط، فهو لا يختلف بخلاف الرأيين بعده، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم.

قال يحيى بن سلام: ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فهو من المكي. وما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني.

ب– المكان: أي باعتبار مكان النزول، فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمِنى وعرفات والحديبية. والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأُحد وقُباء وسلع. لكن يرد على هذا القسم أنه لا يتسم بالاطراد ولا بالحصر لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله سبحانه في سورة التوبة: {لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ...} فإنها نزلت بتبوك، وتبوك تبعد بمسافات عن المدينة، ومع ذلك لا توجد عندنا آيات نصفها بالتبوكية. وكذلك قوله سبحانه في سورة الزخرف: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا} الخ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء. ولا ريب أن عدم الضبط في التقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما يذكر من الأقسام وذلك عيب يخل بالمقصود الأول من التقسيم وهو الضبط والحصر.

ج– الإنسان: أي باعتبار المخاطَب، فالمكي: ما كان خطابًا لأهل مكة، والمدني: ما كان خطابًا لأهل المدينة. وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} مكي، وما فيه من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} مدني. لأن الكفر كان غالبا على أهل مكة فخوطبوا بيا أيها الناس وإن كان غيرهم داخلا فيهم. ولأن الإيمان كان غالبا على أهل المدينة فخوطبوا بيا أيها الذين آمنوا وإن كان غيرهم داخلا فيهم أيضا. لكن يرد على هذا القسم أمران:

أحدهما: ما ورد على سابقه من أنه لا يتسم بالاطراد ولا بالحصر، فإن في القرآن ما نزل غير مصدر بأحدهما نحو قوله سبحانه في أول سورة الأحزاب: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} الخ.

ثانيهما: أن هذا التقسيم غير مطرد في جميع موارد الصيغتين المذكورتين بل إن هناك آيات مدنية صدرت بصيغة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وهناك آيات مكية صدرت بصيغة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} . مثال الأولى سورة النساء فإنها مدنية وأولها {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ}. ومثال الثانية سورة الحج فإنها مكية مع أن في أواخرها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} الخ.

كما أن القرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار والازدياد منها.

الفروق بين المكي والمدني

قد عرفنا فيما مضى أن منهج العلم بالمكي والمدني إما السماع عن طريق الصحابة والتابعين، أو القياس والاجتهاد، وعليه فإن هناك علامات وضوابط يعرف بها المكي والمدني.

أ– من حيث الضوابط

ضوابط المكي:

1– كل سورة فيها لفظ "كَلَّا" فهي مكية.

2– كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية.

3– كل سورة فيها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وليس فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} فهي مكية، إلا سورة الحج ففي أواخرها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا}.

4– كل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع، وفي الرعد خلاف.

5– كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة.

6– كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضا.

وهذا لا يعني بحال أنه إن لم توجد هذه العلامات في سورة من السور فهي مدنية، كما أنه لا يعني انعدم هذه العلامات من السورة أنها ليست مكية. فما تقدم هو غير مطرد، وإنما هو من باب الأعم الأغلب.

ضوابط المدني:

1- كل سورة فيها الحدود والفرائض فهي مدنية.

2- كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية.

3- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت. والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية. وهي التي ذكر فيها المنافقون.

ب- من حيث الموضوعات

- موضوعات المكي:

1- الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية، والآيات الكونية.

2- وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلمًا، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

3- ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجرًا لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

4- قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يصخ الآذان، ويشتد قرعه على المسامع، ويصعق القلوب، ويؤكد المعنى بكثرة القَسَم، كقصار المفصَّل إلا نادرًا.

5- بناء الإنسان.

- موضوعات المدني:

1- التحدث عن دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية والحقوق الشخصية وسائر ضروب العبادات والمعاملات.

2- دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة وبيان جناياتهم على الحق وتحريفهم لكتب الله ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ.

3- الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

4- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها.

ج- من حيث الأسلوب

- الغالب في المكي قوة الأسلوب، وكثرة القسم، وشدة الخطاب؛ لأن غالب المخاطبين معرضون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك.

أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللين، وسهولة الخطاب؛ لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون.

- الغالب في المكي قصر الآيات، وقوة المحاجة؛ لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقون، فخوطبوا بما تقتضيه حالهم.

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام مرسلة بدون محاجة؛ لأن حالهم تقتضي ذلك.

عدد السور المكية والمدنية



أعده الطالب: عبد الرحمن بن عكراش

أقرب ما قيل في تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة، أن المدني عشرون سورة بالاتفاق:

1–البقرة. 2–آل عمران. 3–النساء. 4–المائدة. 5–الأنفال. 6–التوبة. 7–النور. 8– الأحزاب. 9– محمد. 10– الفتح. 11– الحجرات. 12– الحديد. 13– المجادلة. 14– الحشر. 15– الممتحنة. 16– الجمعة. 17– المنافقون. 18– الطلاق. 19– التحريم. 20– النصر.

وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة: 1– الفاتحة. 2– الرعد. 3– الرحمن. 4– الصف. 5– التغابن. 6– التطفيف. 7– القدر. 8– البينة. 9– الزلزلة. 10– الإخلاص. 11– الفلق. 12– الناس.

وأن ما سوى ذلك مكي، وهو اثنتان وثمانون سورة، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة.

أنواع أخرى تدارسها العلماء في هذا المبحث:

– الآيات المكية في السور المدنية: ومن أمثلة ذلك "سورة الأنفال" مدنية، واستثنى منها كثير من العلماء قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}, قال مقاتل في هذه الآية: نزلت بمكة.

– الآيات المدنية في السور المكية: ومن أمثلة الآيات المدنية في السور المكية "سورة الأنعام" قال ابن عباس: نزلت بمكة جملة واحدة. فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شيئًا... إلى قوله: ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

– ما نزل بمكة وحكمه مدني: ويمثلون له بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}. فإنها نزلت بمكة يوم الفتح، وهي مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة, والخطاب فيها عام، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكيًّا، كما لا يسمونه مدنيًّا على وجه التعيين، بل يقولون فيه: ما نزل بمكة وحكمه مدني.

– ما نزل بالمدينة وحكمه مكي، ويمثلون له بسورة الممتحنة، فإنها نزلت بالمدينة، فهي مدنية باعتبار المكان، ولكن الخطاب في ثناياها توجه إلى مشركي أهل مكة..

– ما حُمل من مكة إلى المدينة: ومن أمثلته سورة {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} ,وكل ما حمله المهاجرون من القرآن وعلموه الأنصار.

– ما حُمل من المدينة إلى مكة: ومن أمثلته أول سورة "براءة"، حيث أمَّر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أبا بكر على الحج في العام التاسع. فلما نزل صدر سورة "براءة" حمَّله رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عليَّ بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر حتى يبلِّغ المشركين به. فأذَّن فيهم بالآيات وأبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك.

– ما نزل ليلًا وما نزل نهارًا: أكثر القرآن نزل نهارًا، أما ما نزل بالليل فقد تتبعه القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري واستخرج له أمثلة منها: أواخر آل عمران: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ}.

وإلى غير ذلك من المواضيع التي تناولها العلماء في هذا الباب.

فوائد العلم بالمكي والمدني:

وللعلم بالمكي والمدني فوائد أهمها:

أ– الاستعانة به في تفسير القرآن: فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيرًا صحيحًا، وإن كانت العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب. ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يُميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخًا للمتقدم.

ب– تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالًا، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجًا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لُبَّه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئاتهم، ويبدو هذا واضحًا جليًّا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

ج– الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية..

فإن تتابع الوحي على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالًا للشك فيما رُوِيَ عن أهل السير موافقًا له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

الفهرست

الموضوع **الصفحة**

مقدمات

تعريف علوم القرآن 2

أسماء القرآن وأوصافه 2

طبيعة القرآن وخصائصه 3

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والنبوي 3

الوحي القرآني

تعريف الوحي 5

أنواع الوحي 5

الأدلة على صدق الوحي القرآني 7

نظرة المستشرقين إلى الوحي 9

تنزلات القرآن وأسباب النزول

تنزلات القرآن 11

أسباب النزول 12

طريقة معرفة أسباب النزول 12

تعريف سبب النزول 13

فوائد معرفة أسباب النزول 13

الحِكَم والأسرار من نزول القرآن مفرقا منجما 14

تعدد الأسباب والنازل واحد 15



معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل 16

جمع القرآن

تمهيد 17
جمع القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم 18
جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه 19
خصائص ومزايا جمع أبي بكر 20
جمع القرآن الكريم في عهد عثمان رضي الله عنه 20
خصائص ومزايا جمع عثمان رضي الله عنه 20

الموضوع **الصفحة**

أقوال المنصفين في جمع القرآن 21
الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان 21

المكي والمدني

تمهيد 22
الطريق إلى معرفة المكي والمدني 22
الأسس المعتمدة في التمييز بين المكي والمدني (التعريف الاصطلاحي) 22
الفروق بين المكي والمدني 23
عدد السور المكية والمدنية 24
أنواع أخرى تدارسها العلماء في هذا المبحث 24
فوائد العلم بالمكي والمدني 25